«رسالة في ابطال احكام النجوم»

(بسم الله الرحمن الرحيم)[٥٢]

عصمك الله من قبول المحالات، واعتقاد ما لم تقم عليه الدلالات[٥٣]، وضاعف لك الحسنات، وكفاك المهمات، بمنّه ورحمته. كنتَ أدام الله توفيقك وتسديدك [قد] ذكرت لي اهتمامك بما قد لهج به وجوه أهل زماننا، من النظر في الأحكام والنجوم، وتصديق كل ما يأتي [به]، من ادّعى أنه عارف بها، من علم الغيب الذي تفرد الله سبحانه وتعالى به، ولم يجعله لأحد من الأنبياء والمرسلين، ولا ملائكته المقربين، ولا عباده الصالحين، من معرفة طويل الأعمار، وقصيرها، وحميد العواقب، وذميمها، وسائر ما يتجدد ويحدث، ويتخوف، ويتمنى. وسألتني[٥٤] أن أعمل كتابا أذكر فيه بعض ما وقع من اختلافهم في أصول الأحكام الدالة على وهمهم، وقبح اعتقادهم، وما يستدل به من طريق النظر والقياس، على ضعف مذهبهم، وألخص ذلك، وأختصره، وأقرّبه، بحسب الوسع والطاقة، فوعدتك بذلك، وقد ضمّنته كتابي هذا، والله أسأل عونا على ما قرب منه، وتوفيقا لما أزلف لديه، انه قريب مجيب، فعال لما يريد.

لست مستعملا للتحامل على من أثبت تأثير الكواكب في هذا العالم، وترك انصافهم - كما فعل قوم ردوا عليهم - فانهم دفعوهم عن أن يكون لها تأثير البتة، غير وجود الضياء في المواضع التي تطلع فيها الشمس والقمر وعدمه فيما غابا عنه، وما جرى هذا المجرى، بل أسلّم لهم أنها تؤثر تأثيرا ما يجرى على الأمر الطبيعي، مثل أن يكون البلد القليل العرض مزاجه يميل عن الاعتدال الى الحر واليبس، وكذلك مزاج أهله ضعيف،

---

(٥٢) سبق نص الرسالة، قول ابن قيم الجوزية: «ورأيت لبعض فضلائهم، وهو أبو القاسم عيسى بن علي بن عيسى، رسالة بليغة في الرد عليهم، وابداء تناقضهم، كتبها لما بصّره الله رشده، وأراه بطلان ما عليه هؤلاء الضلال الجهال، كتبها نصيحة لبعض اخوانه، فاحببت أن أوردها بلفظها، وان تضمنت بعض الطول والتكرار، واتعقب بعض كلامه، بتقرير ما يحتاج الى تقرير وسؤال يورد عليه، ويطعن به على كلامه، ثم بالجواب عنه، ليكون قوة للمسترشد، وبيانا للمتحير، وتبصرةً للمهتدي». ويبتدأ النص من الصفحة ٤٨٧ من الكتاب.

(٥٣) في الأصل الدلات.

(٥٤) في الأصل: وسألني.

وألوانهم سود وصفر، كالنوبة والحبشة، وأن يكون البلد الكثير العرض، مزاجه يميل عن الاعتدال الى البرد والرطوبة، وكذلك مزاج أهله، [ضعيف]، وأجسامهم عبلة، وألوانهم بيض، وشعورهم شقر، مثل الترك والصقالبة. ومثل أن يكون النبات ينمو، ويقوى، ويتكامل، وينضج ثمره بالشمس والقمر، فان أهل الصحراء ومن يعاينها[٥٥] مجمعون على أن القثاء تطول، وتغلظ بالقمر. وقد شاهدت غير شجرة كبيرة حاملة من التين والتوت وغيرهما، فما قابل الشمس منها أسرع نضج الثمر الكائن فيه، وما خفى منها عنها بقي ثمره فجا، وتأخر ادراكه. ومثال ذلك ما يشاهد[٥٦] من حال الريحان الذي يقال له اللينوفر[٥٧]، وحال الخبازى[٥٨]، وورق الخطميّ[٥٩]، والآذريون[٦٠]، وأشياء كثيرة من النبات، فانّا نراه يتحرك وينفتح مع طلوع الشمس، ويضعف اذا غابت، لأن هذه أمور محسوسة.

وليس الكلام في هذا التأثير كيف هو، وعلى أي سبيل يقع، فما يليق بغرضنا ههنا، فلذلك أدعه. فأما ما يزعمونه فيما عدا هذا من أن النجوم توجب أن يعيش فلان كذا[٦١] سنة، وكذا[٦١] شهراً، وينتهون في التحديد الى جزء من ساعة، وأنها[٦٢] تدل على تقليد رجل بعينه الملك، وتقليد آخر بعينه الوزارة، وطول مدة كل واحد منهما في الولاية وقصرها، وما فعله الانسان، وما يفعله في منزله، وما يضمره في قلبه، وما هو متوجّه فيه من حاجاته، وما هو في بطن الحامل، والسارق، ومن هو، والمسروق، وما هو، وأين هو،

---

(٥٥) في الأصل: يعانيها.

(٥٦) في الأصل: شاهد.

(٥٧) اللّيْنوفَر: ويقال له أيضا النَيْلُوفَر. «ضرب من النبات ينبت في المياه الراكدة، له أصل كالجزر، وساق ملساء تطول بحسب عمق الماء، فاذا ساوت سطحه أورقت وأزهرت».

(٥٨) الخُبّازى ويقال لها كذلك «الخبازة»: «بقلة معروفة من فصيلة الخّبازيات، مستديرة الورق، يرغبون فيها لخصائصها الملينّة. وتؤكل مطبوخة، ويتداوى بها».

(٥٩) في الأصل: الخطمى. والخطميّ «زهر من فصيلة الخّبازيات، له ساق طويلة مستقيمة تحمل أزهارا جميلة حمراء وبيضاء.. يعيش في المواضع الرطبة. يزرع أحيانا لفوائده الطبية، وهو يستعمل كمليّن».

(٦٠) في الأصل: الأدريون. والآذريون: «زهر من المركبات الانبوبية، برتقالي اللون، يكثر على شواطىء المتوسط، يزرع في الحدائق».

(٦١) في الأصل: كلمة «كذا» مكررة.

(٦٢) في الأصل: وأن يدل.

وكميته، وكيفيته، وما يجب بالكسوف، وما يحدث معه، والمختار من الأعمال في كل يوم، بحسب اتصال القمر بالكواكب من أن يكون هذا اليوم صالحا للقاء الملوك، والرؤساء، وأصحاب السيوف، وهذا يوم محمود للقاء الكتّاب والوزراء، وهذا اليوم محمود للقاء القضاة، وهذا اليوم محمود لأمور النساء، وهذا اليوم محمود لشرب الدواء، والفصد، والحجامة، وهذا اليوم محمود للعب الشطرنج والنرد، وغير ذلك فمحال أن يكون معلوما عن طريق الحس.

وليس [هناك] نص من كتاب الله، بل قد نصّ الله سبحانه وتعالى فيه على بطلانه بقوله تبارك وتعالى (قُلْ لا يَعْلَمُ مَن في السمواتِ والأرضِ الغيبَ الا اللهُ) (٦٣) ولا من سنة رسول الله ﷺ، بل قد جاء عنه ﷺ أنه قال: «من أتى عرافا أو كاهنا أو منجما، فصدّقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد(٦٤)». ولا هاهنا ضرورة تدعو الى القول به، ولا هو أول في المعقول، ولا يأتون عليه ببرهان ولا دليل مقنع. وهذه هي الطرق التي تثبت بها الموجودات، وتعلم بها حقائق الأشياء، ولا طريق هاهنا غيرها، ولا شيء لأحكام النجوم منها.

وأنا أبتدىء الآن بوصف جملة من اختلافهم في الأصول، التي يبنون عليها أمرهم، ويفرّعون عنها أحكامهم. وأذكر المستبشع من أقوالهم، وقضاياهم، وظاهر مناقضاتهم، ثم آتي بطرفٍ من احتجاجهم، والاحتجاج عليهم، والله الموفق للصواب بفضله.

ذكر اختلافهم في الأصول

زعموا أن الخير والشر، والاعطاء والمنع، وما أشبه ذلك، يكون في العالم بالكواكب، وبحسب السعود منها والنحوس، وعلى حسب كونها من البروج الموافقة، والمنافرة لها،

---

(٦٣) سورة «النمل»، الآية ٦٥.

(٦٤) جاء في صحيح مسلم: «عن بعض أزواج النبي ﷺ قال: من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة». ابو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري: الجامع الصحيح، ج٧، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، بلا تاريخ، ص٣٧. وكذلك صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٤، ط١، المطبعة المصرية، بالازهر، القاهرة، ١٩٣٠، ص٢٢٧.

وعلى حسب نظر بعضها الى بعض، من التسديس، والتربيع، والتثليث، والمقابلة. وعلى حسب مجاسدة بعضها بعضا، وعلى حسب كونها في شرفها، وهبوطها ووبالها.

ثم اختلفوا على أي وجه يكون ذلك. فزعم قوم منهم أن فعلها بطبائعها. وزعم آخرون أن ذلك ليس فعلا لها، لكنها تدل عليه بطبائعها. وزعم آخرون أنها تفعل بالاختيار لا بالطبع، الا أن السّعد منها لا يختار الا الخير، والنّحس منها لا يختار الا الشر. وهذا بعينه نفى للاختيار، فان حقيقة القادر المختار [هي] القدرة على فعل أي الضدين شاء، وترك أيهما شاء. وزعم آخرون أنها لا تفعل باختيار، بل تدل باختيار. وهذا كلام لا يعقل معناه، الا أني ذكرته لما كان مقولا.

واختلفوا فقالت فرقة: من الكواكب ما هو سعد، ومنها ما هو نحس. وهي تسعد غيرها وتنحسه. وقالت فرقة: هي في أنفسها طبيعة واحدة، وانما تختلف دلالتها على السعود والنحوس، وان لم تكن في أنفسها مختلفة. واختلفوا [أيضا] فقال قوم انها تؤثر في الأبدان والأنفس جميعا. وقال الباقون بل في الأبدان دون الأنفس. واختلف رؤساؤهم بطليموس ودورثيوس(٦٥) وانطيقوس(٦٦) وذيسموس(٦٧) وغيرهم من علماء الروم والهند وبابل في الحدود وغيرها، وتضادوا في المواضع التي يأخذون منها دليلهم. فبعضهم يغلّب رب بيت الطالع، وبعضهم يقول بالدليل المستولي على الحظوظ. واختلفوا، فزعم بطليموس أنه يعلم منها(٦٨) السعادة بأن يأخذ أبدا العدد الذي يحصل من موضع الشمس الى موضع القمر، ويبتدىء من الطالع، فيرصد منه مثل ذلك العدد. ويأخذ الى الجهة التي تتلو من البروج، فيكون قد عرف موضع السهم. وزعم غيره أنه يعدّ من الشمس ثم يبتدىء من الطالع، فيعد مثل ذلك الى الجهة المتقدمة من البروج.

---

(٦٥) في الأصل: دورسوس. ودورثيوس Dorotheus منجم سرياني عاش في القرن الأول الميلادي. انظر ابن النديم: الفهرست، ص ٣٠.

(٦٦) هو Antioches من منجمي القرن الثاني أو الثالث الميلاديين.
انظر، كرلو نلّينو: علم الفلك، هامش ص ١٤٦.

(٦٧) في الأصل: ريمسس. وقد ذكر ابن النديم «ذيسموس-Zosimus» وقال ان له كتابا «سماه المفاتيح في الصنعة، يحتوي على عدة كتب ورسائل على ترتيب.. وتعرف بالسبعين رسالة» ابن النديم: الفهرست، ص ٤١٩. وقد عاش هذا «الكيماوي» «في أواخر القرن الثالث أو أوائل الرابع للمسيح». وورد اسمه في «المغني في النجوم» لابن هبنتا «زمس»، انظر، نلينو: علم الفلك، ص ٢١٩.

(٦٨) في الأصل: منهم.

واختلفوا فرتبت طائفة منهم البروج، المذكرة والمؤنثة، من البرج الطالع، فعدّوا واحداً مذكرا، وآخر مؤنثا، وصيّروا الابتداء بالمذكر. وقسمت طائفة أخرى البروج أربعة أجزاء، وجعلوا البروج المذكرة هي التي من الطالع الى وسط السماء، والتي يقابلها من الغرب الى وتد الارض، وجعلوا الربعين الباقيين مؤنثين.

واختلفوا في الحدود: فزعم أهل مصر أنها تؤخذ من أرباب البيوت. وزعم الكلدانيون أنها تؤخذ من مدبري المثليات. واذا كان اختلاف الذين يعتدون بهم، في اصولهم، هذا الاختلاف، وليسوا[٦٩] هم ممن يطالب بالبرهان، ولا [ممن] يعتقد الشيء حتى يصح على البحث والقياس، فيعرفون مع مَن الحق من رؤسائهم، وفي أي قول هو من أقوالهم، فيعملون به، وانما طريقتهم التسليم لما وجدوه في الكتب، المنقولة من لسان[٧٠] الى لسان، فكيف يجوز لهم أن ينفردوا باعتقاد قولٍ من هذه الاقوال، وينصرفوا عما سواه، الا على طريق الشهوة والتخمين والله المستعان.

[ذكر بعض ما يستبشع من أقوالهم، ويستدل به على مناقضتهم]

من ذلك زعمهم أن الفلك جسم واحد، طبيعة واحدة، وأنه شيء واحد، وليس بأشياء مختلفة. ثم زعموا بعد ذلك أن بعضه ذكر، وبعضه أنثى. ولا دلالة لهم على ذلك، ولا برهان، ولا وجدنا جسما واحدا في الشاهد بعضه ذكر وبعضه أنثى.

ومن ذلك زعمهم، أنه ان اتفق مولود ابن ملك وابن حجام، في البلد، والوقت، والطالع، والدرجة، وكانت سائر دلالات السعادة موجودة في مولديهما، وجب أن يكون من ابن الملك[٧١] ملك جليل، سائس، مدبر؛ ومن ابن الحجام حجام حاذق. وهذا يخرج النجوم عن أن تكون تدل على ما يتحدد من حال الانسان، ويجعلها تدل على حذقه، وصناعة أبيه، وتقصيره فيها. وأبعد من ذلك قولهم ان الكواكب المتحيرة أجلّ من الثوابت، وأبين تأثيرا في العالم، وان كل واحد من الكواكب الثابتة يفعل فعلا واحدا

---

(٦٩) في الاصل: وليس.

(٧٠) في الاصل: اللسان.

(٧١) في الأصل: المالك.

لا يزول عنه، من غير أن ينحس أو يسعد، وان عطارد هو من الكواكب المتحيرة ليس له طبع يعرف، وأنه نحس اذا قارن النحوس، وسعد اذا قارن السعود.

ومن ذلك قولهم ان قوة القمر الترطيب، وان العلة في ذلك قرب فلكه من الأرض، وقبوله البخارات الرطبة التي ترتفع اليه منها. وان قوة زحل أن يبرّد ويجفّف تجفيفا يسيرا، وأن علة ذلك بُعْدُه عن حرارة الشمس، وعن البخارات الرطبة التي ترتفع من الأرض. وان قوة المريخ مجفّفة محرّقة لمشاكلة لونه للون النار، ولقربه من الشمس، لأن الكرة التي فيها الشمس موضوعة تحته. وان الكواكب الثابتة، التي في الدب الأكبر، قوتها كقوة المريخ. وهذا غلط عظيم، لأن لون هذه الكواكب غير مشبه للون النار، وليست الكرة، التي فيها الشمس، موضوعة تحتها، بل الكرة التي فيها زحل موضوعة تحتها. فهي بأن يكون حالها مشبها لحال زحل أولى لأنها فوقه، وبعدها عن الشمس، وعن حرارات الأرض أكثر من بعده.

وزعموا أن عطارد معتدل في التجفيف والترطيب، لانه لا يبعد– في وقت من الأوقات– عن حر الشمس بعدا كثيرا، ولا وضعه فوق كرة القمر، وأن الكواكب الثابتة التي في الجاثي[٧٢] حالها شبيهة بحاله، وليس يوجد لها، من السببين اللذين دلّا على

---

(٧٢) في الأصل: الجاني. جاء في «مفاتيح العلوم» ان من بين الكواكب الثابتة في الجهة الشمالية «الجاثي على ركبتيه». (ابو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي: مفاتيح العلوم، تحقيق G. Van Volten مطبعة بريل، ١٩٦٨، ص ٢١١. وسيشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا: الخوارزمي: مفاتيح العلوم. ويقال للجاثي «الراقص، وهي صورة رجل مَد يده وجثى على ركبتيه. احدى رجليه على طرف عصا العواء، وهي اليمنى، والأخرى عند الأربعة التي على رأس التنين التي تسمى العوائذ». (محمود باشا العسكري: المنتخب النفيس من علم نبي الله ادريس، ط ٢، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ١٩٥٠، ص ١١٣). وسيشار لهذا المرجع فيما بعد هكذا: محمود العسكري: المنتخب النفيس. «ويسمى هذا التجمع النجمي باسم الجاثي أو الراقص أو هرقل Hercules ويضم ١١٣ كوكبا، واحد من القدر الثاني أو بين الثاني والثالث، و ٩ من الثالث و ١٩ من الرابع والباقي دون ذلك». (يعقوب صروف: بسائط علم الفلك وصور السماء، مجلة المقتطف، القاهرة، ١٩٢٣، (ص ١٠٨–١٠٩)، وسيشار لهذا المرجع فيما بعد هكذا: يعقوب صروف: بسائط علم الفلك. ويقول في موضع آخر: «في السماء نحو ١٠٠ بقعة منيرة كل منها كالقمر سعة أو أصغر. واذا نظر اليها بالتلسكوب ظهر أنها مؤلفة من نجوم كثيرة... من أوضحها مجتمع الجاثي. وفيه أكثر من ٥٠٠٠ نجم، يرى في الليلة الظلماء الخالية من السحاب والضباب كلطخة بيضاء في السماء». (ص ٨٦).

طبيعة عطارد، شيء[٧٣]، بل الدور يوجد لها ضد ذلك، وهو أنها بعيدة من الشمس في أكثر الأوقات، وأن فلكها أبعد أفلاك الكواكب من كرة القمر.... وقالوا ان الكواكب التي من العقاب[٧٤] تشبه حال عطارد وزحل في بعض الأوقات، وتشبه حال المشتري والمريخ في بعضها.

نحن لم ننازعكم في تأثير[٧٥] الشمس والقمر في هذا العالم بالرطوبة، والبرودة، واليبوسة، وتوابعها، وتأثيرها في أبدان الحيوان والنبات، ولكن [نقول إنهما][٧٦] جزء من السبب المؤثر، وليسا بمؤثر تام، فان تأثير الشمس مثلا انما كان بواسطة الهواء، وقبوله للسخونة والحرارة، بانعكاس شعاع الشمس عليه، عند مقابلتها لجرم الأرض. ويختلف هذا القبول عند قرب الشمس من الأرض وبعدها، فيختلف حال الهواء وأحوال الأبخرة في تكاثفها، وبرودتها، وتلطفها، وحرارتها، فتختلف التأثيرات باختلاف هذه الأسباب. والشمس جزء السبب[٧٧] في ذلك، والأرض جزء، والمقابلة الموجبة لانعكاس الأشعة جزء، والمحل القابل للتأثير والانفعال جزء، ونحن لا ننكر أن قوة البرد بسبب بعد الشمس عن سمت رؤوسنا، وقوة الحر بسبب قرب الشمس من سمت رؤوسنا.

---

(٧٣) في الأصل: شيئا.

(٧٤) في الأصل: النعاد. يقول الخوارزمي: ان من بين الكواكب الثابتة في الجهة الشمالية «الجاثي على ركبتيه» و «العقاب». (مفاتيح العلوم، ص ٢١١). ويحتمل ان تكون الكلمة الصحيحة «العناق»، وهو من النجوم المزدوجة. (يعقوب صروف: بسائط علم الفلك، ص ٨٥) التي تؤلف جزءا من مجموعة الدب الأكبر، اذ تضم هذه المجموعة «بنات نعش الكبرى». وهذه «سبعة أنجم ظاهرة: «النعش» منها أربعة، والثلاثة بنات. ويسمى الأول من البنات «القائد»، ويسمى الأوسط «عناق».. »(ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، كتاب الانواء، ط١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند، ١٩٥٦، ص ١٤٧). ويوجد فوق «العناق» الكوكب الذي تسميه العرب «السها»، وبه تضرب المثل. كما يحتمل أن تكون القراءة الصحيحة للكلمة هي «العنّاز» Auriga وهي مجموعة نجمية «على هيئة رجل ممسك أعنة بيده اليسرى، وحاملا جديا على ذراعه اليمنى، بين الثريا وبين كوكب الدب الاكبر». (منصور حنا جرداق: القاموس الفلكي، المطبعة الاميركانية، بيروت، ١٩٥٠، ص ١٢٢). وانظر كذلك، أمين فهد المعلوف: المعجم الفلكي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٥، ص ٢٨.

(٧٥) في الأصل: تأسيره.

(٧٦) في الأصل: ولكن هما.

(٧٧) في الأصل: والسبب جزء الشمس.

ولا ننكر[٧٨] أن الشمس اذا طلعت فان الحيوان، ناطقه، وبهيمه، يخرج من مكامنه، وأكنته، وتظهر القوة والحركة فيهم. ثم ما دامت الشمس صاعدة في الربع الشرقي، فحركات الحيوان في الازدياد، والقوة، والاستكمال، فاذا مالت الشمس عن وسط السماء، أخذت حركات الحيوان وقواهم في الضعف. وتستمر هذه الحال الى غروب الشمس. ثم كلما ازداد نور الشمس عن هذا العالم بعدا، ازداد الضعف والفتور في حركة الحيوان، وهدأت الأجساد، ورجعت الحيوانات الى مكانّها. فاذا طلعت الشمس رجعوا الى الحالة الأولى.

ولا ننكر أيضا ارتباط فصول العالم الأربعة بحركات الشمس، وحلولها في أبراجها. ولا ننكر أن السودان لما كان مسكنهم خط الاستواء الى محاذاة ممر رأس السرطان، وكانت الشمس تمر على رؤوسهم في السنة اما مرة واما مرتين، تسودت أبدانهم، وجعدت شعورهم، وقلّت رطوباتهم، فساءت أخلاقهم، وضعفت عقولهم. وأما الذين مساكنهم أقرب الى محاذاة ممر السرطان، فالسواد فيهم أقل، وطبائعهم أعدل، وأخلاقهم أحسن، وأجسامهم ألطف، كأهل الهند، واليمن، وبعض أهل الغرب. وعكس هؤلاء الذين مساكنهم على ممر رأس السرطان الى محاذاة بنات نعش الكبرى، فهؤلاء- لأجل أن الشمس لا تسامت رؤوسهم، ولا تبعد عنهم أيضا بعدا كثيرا- لم يعرض لهم حر شديد، ولا برد شديد، فألوانهم متوسطة، وأجسامهم معتدلة، وأخلاقهم فاضلة، كأهل الشام، والعراق، وخراسان، وفارس، والصين. ثم من كان من هؤلاء أميل الى ناحية الجنوب كان أتم في الذكاء، والفهم. ومن كان منهم يميل الى ناحية الشرق فهم أقوى نفوسا، وأشد ذكورة. ومن كان يميل الى ناحية الغرب، غلب عليه اللين والرزانة.

ونحن لا ننكر، ولا ندفع، أن الزرع أو النبات[٧٩] لا ينمو ولا ينشأ الا في المواضع التي تطلع عليها الشمس. ونحن نعلم أيضا أن وجود بعض النبات، في بعض البلاد، لا

---

(٧٨) اقتبس محمود العسكري هذا الكلام بنصه تقريبا في كتابه «المنتخب النفيس»، ص ١٠٦، دون الاشارة الى هذه الرسالة.

(٧٩) في الأصل: و. اقتبس محمود العسكري هذا الكلام والصفحتين التاليتين بنصهما تقريبا في كتابه «المنتخب النفيس»، ص ١٠٠ - ١٠١، دون الاشارة الى هذه الرسالة.

سبب له الا اختلاف البلدان في الحر والبرد، الذي سببه حركة الشمس، في قربها[٨٠] وبعدها من ذلك البلد. وأيضا فان النخل ينبت في البلاد الحارة، ولا ينبت في البلاد الباردة. وشجر الموز لا ينبت في البلاد الباردة. وكذلك ينبت في البلاد الجنوبية أشجار، وفواكه، وحشائش، لا يعرف شيء منها في جانب الشمال، وبالعكس.

وكذلك الحيوانات يختلف تكّونها بحسب اختلاف حرارة البلاد، وبرودتها، فان النسر، والفيل يكونان بأرض الهند، ولا يكونان في سائر الأقاليم، التي هي دونها في الحرارة، وكذلك غزال المسك، والكركند[٨١] وغير ذلك.

وكذلك لا ندفع تأثير القمر في وقت امتلائه في الرطوبات، حتى في جَزْر البحار ومدها، فان منها ما يأخذ في الازدياد، من حين يفارق القمر الشمس، الى وقت الامتلاء. ثم انه يأخذ في الانتقاص، ولا يزال نقصانه يستمر بحسب نقصان القمر، حتى ينتهي الى غاية نقصانه، عند حصول المحاق. ومن البحار ما يحصل فيه المد والجزر، في كل يوم وليلة، مع طلوع القمر وغروبه. وذلك موجود في بحر فارس، وبحر الهند، وكذلك بحر الصين. وكيفيته أنه اذا بلغ القمر مشرقا من مشارق البحر، ابتدأ البحر بالمد، ولا يزال كذلك، الى أن يصير القمر الى وسط سماء ذلك الموضع، فعند ذلك ينتهي منتهاه. فاذا زال القمر من مغرب ذلك الموضع، ابتدأ المَدُّ من تحت الأرض، ولا يزال زائدا، الى أن يصل القمر الى وتد الارض، فحينئذ ينتهي المد منتهاه. ثم يبتدىء الجزر ثانيا، ويرجع الماء كما كان.

وسكان البحر كلما رأوا في البحر انتفاخا، وهيجان رياح عاصفة، وأمواج شديدة، علموا أنه ابتدأ المد. فاذا ذهب الانتفاخ، وقلت الأمواج، والرياح، علموا أنه وقت الجزر. وأما أصحاب الشطوط والسواحل فانهم يجدون عندهم، في وقت المد، للماء حركة من أسفله الى أعلاه، فاذا رجع الماء ونزل، فذلك وقت الجزر.

وكذلك أيام بحرانات الأمراض، بحسب زيادة القمر ونقصانه منطبقة عليها. وكذلك الأخلاط التي في بدن الانسان، ما دام القمر آخذا في الزيادة فانها تكون أزيد، ويكون

---

(٨٠) في الأصل: وتقاربها في قربها.

(٨١) «الكركند» هو «الكركدن».

ظاهر البدن أكثر رطوبة، وحسنا، فاذا نقص ضوء القمر، صارت الأخلاط في غور البدن والعروق، وازداد ظاهر البدن يبسا. وكذلك ألبان الحيوانات تتزايد من أول الشهر الى نصفه، فاذا أخذ القمر في النقصان، نقصت غزارتها. وكذلك أدمغة الحيوانات في أول الشهر أزيد منها في نصفه الأخير. وان حدث في أجواف الطيور بيض في النصف الاول من الشهر، كان بياضه أكثر من بياض الحادث في نصفه الثاني. وكذلك الانسان اذا نام أو قعد في ضوء القمر، حدث في بدنه الاسترخاء والكسل، وهاج عليه الزكام والصداع. واذا وضعت لحوم الحيوانات مكشوفة تحت ضوء القمر، تغيرت طعومها وتعفنت.

وكذلك السمك في البحار، والأنهار[٨٢] الجارية، توجد من أول الشهر الى وقت الامتلاء أكثر، وخروجها من قعور البحار والانهار[٨٢] أظهر، ومن بعد الامتلاء الى الاجتماع فانها تدخل قعور البحار والأنهار[٨٢]. والذي يظهر، من سمين السمك، في النصف الأول أكثر من الذي يظهر في الثاني منه. وكذلك حشرة الأرض يكون خروجها من أجحرتها في النصف الأول من الشهر أكثر من خروجها في النصف الثاني.

وأصحاب الغراس يزعمون أن الأشجار والغروس، اذا غرست والقمر زائد الضوء، كان نشؤها وكمالها، واسراعها في النبات، أحمد من التي تغرس في محاقه وذهاب نوره. وكذلك تكون الرياحين، والبقول، والأعشاب، من الاجتماع الى الامتلاء أزيد نشوا، وأكثر نموا، وفي النصف الثاني بالضد من ذلك. وكذلك القثاء، والقرع، والخيار، والبطيخ، ينمو نموا بالغا عند ازدياد الضوء. وأما في وسط الشهر، عند حصول الامتلاء، فهناك يعظم النمو حتى يظهر التفاوت للحس في الليلة الواحدة. وكذلك الينابيع تزداد في النصف الأول من الشهر، وتنقص في النصف الثاني، الى غير ذلك من الوجوه التي تؤثر فيها الشمس والقمر في هذا العالم، فنحن لم ندفعكم عن هذه التأثيرات وأضعافها.

انما الذي أنكره عليكم العقلاء من أهل الملل، وغيرهم، أن جملة الحوادث في هذا العالم، خيرها، وشرها، وصلاحها، وفسادها، وجميع أشخاصه، وأنواعه، وصوره، وقواه، ومدد بقاء أشخاصه، وجميع أحوالها العارضة لها، وتكوّن الجنين، ومدة لبثه في بطن

---

(٨٢) في الأصل: الآجام.

أمه، وخروجه الى الدنيا، وعمره، ورزقه، وشقاوته، وسعادته، وحسنه وقبحه، وأخلاقه، وحذقه، وبلادته وجهله، وعلمه، بل ونزول الأمطار، واختلاف أنواع الشجر والنبات، في الشكل، واللون، والطعوم، والروائح، والمقادير، بل انقسام الحيوان الى الطير وأصنافه، والبحري وأنواعه، والبري وأقسامه، وأشكال هذه الحيوانات، واختلاف صورها وأنواعها، وأفعالها وأخلاقها، ومنافعها، بل وتكوّن المعادن المنطبعة كالحديد، والرصاص، والنحاس، والذهب، والفضة، بل وغير المنطبعة كالملح والقار، والزرنيخ، والنفط، والزئبق، بل العداوة الواقعة بين الذئب والغنم، والحيات والسباع وبني آدم، والصداقة والعدواة بين أفراد النوع الواحد [لا]سيما بين ذكوره واناثه، وبالجملة فالأرزاق والآجال، والعز والذل، والرفعة والخفض، والغناء والفقر، والاحياء والاماتة، والمنع والاعطاء، والضر والنفع، والهدى والضلال، والتوفيق والخذلان، وجميع ما في العالم، والأشخاص، وأفعالها، وقواها، وصفاتها وهيأتها، والمعطي له هذه، واتصالاتها وانفصالاتها، واتصالاتها بنقط، وانفصالاتها عن نقط، ومقارنتها ومفارقتها، ومسامتتها ومباينتها، فهي المعطية لهذا كله، المدبرة الفاعلة، فهي الآلهة والأرباب على الحقيقة، وما تحتها عبيد خاضعون لها، ناظرون اليها. فهذا كما أنه الكفر الذي خرجوا به عن جميع الملل – وعن جملة شرائع الانبياء، ولم يمكنهم أن يقيموا بين أرباب الملل الا بالتستر بهم، ومنافقتهم، والتزيي بزيهم ظاهرا، والا فقتل هؤلاء من الأمر الضروري في كل ملة، لأنهم سوسها وأعداؤها – فهو من الهذيان الذي أضحكوا به العقلاء على عقولهم. حتى رد عليهم من لا يؤمن بالله واليوم الآخر من الفلاسفة. وزعموا أن القمر والزهرة مؤنثان، وأن الشمس، وزحل، والمشتري، والمريخ، مذكرة، وأن عطارد ذكر انثى، مشارك للجنسين جميعا، وان سائر الكواكب تذكر وتؤنث، بسبب الأشكال التي تكون لها بالقياس الى الشمس. وذلك أنها اذا كانت مشرقة، متقدمة للشمس فهي مذكرة، وان كانت مغربة تابعة، كانت مؤنثة. وان ذلك أيضا يكون بالقياس الى أشكالها الى الأفق. وذلك أنها اذا كانت في الاشكال التي من المشرق الى وسط السماء، مما تحت الأرض، فهي مذكرة، لأنها اذا كانت شرقية فهي من ناحية مهب الصبا، واذا كانت في الربعين الباقيين فهي مؤنثة، لانها في ناحية مهب الدبور. واذا كان هذا هكذا صارت الكواكب التي يقال انها مؤنثةٌ مذكرةٌ، والتي يقال انها مذكرةٌ مؤنثةٌ، وصارت طباعها مستحيلةً، بل تصير أعيانها تنقلبُ، وان القمر والزهرة مؤنثان، والكواكب الخمسة الباقية مذكرة على الوضع الاول.

فانْ تَقَدَّمَ القمر والزهرة الشمس، وكانا شرقيين، صارا مذكرين، وان تأخرت الكواكب الخمسة، وكانت مغربة تابعة، كانت مؤنثة على الموضوع الثاني. ويصير عطارد ذكرا اذا شرق، أنثى اذا غرب، وذكرا أنثى اذا لم يكن بأحد [ى] هاتين الصفتين.

وزعموا أن القمر، منذ الوقت الذي يهل فيه الى وقت انتصافه الأول في الضوء، يكون فاعلا للرطوبة خاصة، ومنذ وقت انتصافه الأول في الضوء الى وقت الامتلاء، يكون فاعلا للحرارة. ومنذ وقت الامتلاء الى وقت الانتصاف الثاني في الضوء يكون فاعلا اليبس. ومنذ وقت الانتصاف الى الوقت الذي يخفى فيه ويفارق الشمس، يكون فاعلا للبرودة. وأي شيء أقبح من هذا، ولا سيما وقد أعطى قائله أن القمر رطب، وأنه يفعل بطبعه لا باختياره. وكيف أن يفعل شيء واحد بطبعه الأشياء المتضادة مرة في الدهر فضلا عن أن يفعلها في كل شهر. وهل القول – بأن شيئا واحدا يفعل بطبعه في الأشياء الترطيب في وقت، ويفعل بطبعه التجفيف في آخر، ويفعل الاسخان في وقت، ويفعل التبريد في آخر – الا كالقول بأن شيئا واحدا تنقلب عينه وقتا بعد وقت.

وقالوا في معرفة أحوال أمهات المدن، ان (٨٣) ذلك يعلم من المواضع التي [يكون] فيها الشمس والقمر، في اول ابتنائها، و [أما] مواضع الأوتاد فهو خاصة وتد الطالع، كما يفعل في المواليد. فان لم يوقف على الزمان الذي بنيت فيه، فلينظر الى موضع وسط السماء، في مواليد الولاة والملوك، الذين كانوا في ذلك الزمان، الذي بنيت فيه تلك المدن.

وقالوا في معرفة حال الوالدين: ان الشمس وزحل يشاكلان الآباء بالطبع، ولست أدري كيف تعقل دلالة شيء، ليس مما يتوالد بطبعه، على شيء من طريق التوالد، لأن الأب انما يكون أبا باضافته الى ابنه، والابن انما يكون ابنا باضافته الى أبيه. وأنهم يستدلون على حال الأولاد بالقمر، والزهرة، والمشتري، وأن أحوال الأب تعرف من مولد * ابنه بأن يقام موضع الكوكب الدال عليه، وهو الشمس أو زحل، مقام الطالع. ويستدل على حال الابن من مولد أبيه، بأن يقام موضع الكوكب الدال عليه، وهو أحد الكواكب الثلاثة: القمر والمشتري والزهرة، مقام الطالع. وقد يكون الانسان في أكثر الأوقات أبا، فيكون (٨٤) الشمس أو (٨٥) زحل يدل عليه من مولد ابنه، وله في نفسه مولد لا محالة.

---

(٨٣) في الأصل: أن. (٨٤) في الأصل: أبيا فكون. (٨٥) في الأصل: و. * في الأصل: مواليد.

ويمكن أن يكون ربُّ طالعِ مولدهِ كوكبا، غير الكوكبين الدالين على حاله، من مولد أبيه وابنه، فيكون حاله يعرف من ثلاثة كواكب، وثلاثة بروج، مختلفة الأشكال والطبائع. وتناقض هذا القول بيّن لمستعمله فضلا عن متوهمه.

وزعم بطليوس: أن الفلك اذا كان على شكل ما ذكره، في مولدٍ ما، وكانت الكواكب في مواضع ذكرها، وجب أن يكون الولد أبيض اللون، سبطا. وان وجد مولود في بلاد الحبشة، والفلك متشكل على ذلك الشكل، والكواكب في المواضع التي ذكرها، لم يمض ذلك الحكم عليه ومضى على المولود، ان كان من الصقالبة، أو من قرب مزاجه من مزاجهم. وزعم أن الفلك اذا كان على شكل ما ذكره، في مولد ما، وكانت الكواكب في مواضع ذكرها، فان صاحب المولد* يتزوج أخته، ان كان مصريا، فان لم يكن مصريا، لم يتزوجها. وزعم أن الفلك اذا كان على شكل آخر ذكره، في مولد من المواليد، وكانت الكواكب في موضع بينهما، تزوج الولد بأمه، ان كان فارسيا، وان لم يكن فارسيا لم يتزوجها... وهذه مناقضة شنيعة، لأنه ذكر علة ومعلولاً يوجدُ بوجودها ويرتفعُ بارتفاعها، ثم ذكر أنها توجد من غير أن يوجد معلولها.

واذا كان الفلك متى تشكل شكلًا ما دلّ ان كان في مولد مصري، على أنه يتزوج أخته، فذلك سُنة كانت لهم، وعادة، وان كان في مولد غيره لم يدل على ذلك. ونحن نجد أهل مصر في وقتنا هذا قد زالوا عن تلك العادة، وتركوا تلك السنة بدخولهم في الاسلام، والنصرانية، واستعمالهم أحكامهما. فيجب أن تسقط هذه الدلالة من مواليدهم، لزوالهم عن تلك العادة، أو تكون الدلالة توجب ذلك في مولد كل واحد(٨٦) منهم ومن غيرهم، أو تسقط الدلالة وتبطل، بزوال أهل مصر عما كانوا عليه، وكذلك جمهور أهل فارس. وأيّ ذلك كان، فهو دال على قبيح المناقضة، وشدة المغالطة. وقد رأيت وجيههم (٨٧)بطليموس يقول، في كتابه المعروف «بالأربعة»، فيحدث كذا وكذا، ويقول: فاذا كان كذا وكذا، توهمنا أنه يكون كذا وكذا.

(ذكر جمل من احتجاجهم والاحتجاج عليهم)

من أوكد ما يستدلون به على أن الكواكب تفعل في هذا العالم، أو [أن] لها دلالة

---

(٨٦) في الاصل: أحد.

(٨٧) في الأصل: وجههم.

* في الأصل: الولد.

على ما يحدث فيه، انهم امتحنوا عدة مواليد، صححوا طوالعها، وجماعة مسائل راعوها، فوجدوا القضية في جميع ذلك صادقة، فدلهم ذلك على أن الأصول التي عملوا عليها صحيحة. فيقال لهم: اذا كان ما تدعونه من هذا دليلا على صحة الاحكام، فما الفصل[٨٨] بينكم وبين من قال: الدليل على بطلان الاحكام أناّ[٨٩] امتحنا مواليد، صححنا طوالعها، ومسائل تفقدنا أحوالها، فوجدنا جميعها باطلا، ولم يصح الحكم في شيء منها. فان قالوا: انما يكون هذا لجواز الغلط على المنجم الذي عملها... قيل لكم: فما تنكرون من أن يكون صدق المنجم في حكمه باتفاق وتخمين، كاخراج الزوج والفرد، وصدق الحزر في الوزن، والكيل، والذرع، والعدد. واذا كانت الدلالة على صحة مقالتكم صدقكم في بعض أحكامكم، فالدلالة على بطلانها كذبكم في بعضها... فان قالوا ليس ما قلناه بتخمين، لانّا انما نحكمه على أصول موضوعة، في كتب القدماء.... قيل لهم لسنا نشك في أنكم تتبعون ما في الكتب، وتقلدون من تقدمكم، وما يقع من الصدق فانما يقع بحسب الاتفاق. والذي حصلتم عليه هو الحدس والتخمين، بحسب ما في الكتب.

ومما يَسْتَدلّ به من ينتسب الى الاسلام منهم، على تصحيح دلالة النجوم قوله تعالى:

(فَنظَر نَظرَة في النجوم، فقال إني سَقيم)[٩٠]ولا حجة في هذا البتة، لأن ابراهيم، عليه الصلاة والسلام، انما قال هذا ليدفع به قومه عن نفسه. ألا ترى أنه عزّ وجل قال بعده[٩١]: (فَتولّوا عنه مُدبرين فرَاغ الى آلهتهم فَقَال ألا تأكلون)[٩٢]، فبين تبارك وتعالى أنه انما قال ذلك ليدفعهم به، لما كان [قد] عزم عليه من أمر الاصنام. وليس يحتاج احد الى معرفة أصحيح هو أم سقيم من النجوم، لان ذلك يوجد حسا، ويعلم ضرورة، ولا يحتاج فيه الى استدلال وبحث[٩٣]

---

(٨٨) في الأصل: الفضل.

(٨٩) في الأصل: ان. (٩٠) سورة « الصافات » الآية ٨٨.

(٩١) في الأصل: بعد. (٩٢) سورة « الصافات » الآيتان: ٩٠، ٩١.

(٩٣) يرد بعد هذا نص أوله كلمة «قلت» يتلوها عرض من ابن القيم لما أورده أبو عبد الله الرازي من حجج للقوم من كتاب الله، ويعقب ابن القيم على هذا كله بتعليقاته التي تستمر حتى نهاية الكتاب. وواضح أن رسالة عيسى بن علي – على هذا النحو – ناقصة عبارة أو أكثر، لأنه أتى بجميع ما وعد به في مقدمتها، ولم يبق سوى خاتمة الرسالة، فيما نرجح.